انساق القيم الإجتماعية : سلامحها وظروف تشكلها وتغيرها في مصر

د . سمير نعيم أحمد*

١ ـ مقدمة

شهدت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية اهتماما متزايدا وجدلا واسعا من جانب العلماء الاجتماعيين والمفكرين في العالم بوجه عام وفي بلدان العالم الثالث والأقطار العربية بوجه خاص حول موضوع التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلدان المتخلفة أو المسماة بالنامية. ويمكن التمييز في هذه المعالجات لموضوع التنمية بين اتجاهين نظريين وأيديولوجيين مختلفين : الاتجاه الأول يغالى في التأكيد على أهمية الجوانب الفكرية أو المثالية كالدوافع و الاتجاهات والقيم والمعتقدات بوصفها من أهم عوامل المتخلف أو إعاقة التنمية، و يعرف هذا الاتجاه بالاتجاه التقليدي في التنمية ، والاتجاه الثاني يركز على أهمية الجوانب المادية التاريخية للتخلف وضرورة فهمها من أجل تحقيق تنمية حقيقية في البلدان المتخلفة ويعتبر بناء على ذلك أن السبب الرئيسي في التخلف هو الاستعمار وما فرضه من تبعية بلدان العالم الثالث للبلدان الرأسمالية الغربية ويعرف هذا الاتجاه بالاتجاه الراديكالي .

وقد كان للاتجاه التقليدي تأثير بالغ على المفكرين العرب إلى درجة أن معظم الكتابات التي تتناول أسباب التخلف في بلادنا تعطي أهمية كبيرة للقيم الاجتماعية بوصفها من أهم معوقات التنمية وتدعو إلى تغييرها،بينما أهمل الاتجاه الراديكالي كلية تقريبا

(*) استاذ علم الاجتماع بجامعتي عين شمس والكويت .

هذا الموضوع واكتفى بمعالجة الجوانب الاقتصادية والسياسية للتخلف . وقد أجريت تحليلات متعمقة ومفيدة للواقع الاقتصادي الاجتماعي في مصر قام بها بصفة أساسية علماء الاقتصاد المصريون وساهم فيها قليل من العلماء الاجتماعيين ، ولكن هذه الدراسات لم تعط للجانب القيمي والسلوكي في عمليتي التخلف والتنمية اهتماما يذكر ، ربما كرد فعل ضد الاتجاه التقليدي الذي جعل من القيم المحور الأساسي لحالة التخلف ، وربما لنقص المادة العلمية الامبيريقية والتاريخية عن العلاقة بين الجوانب الاقتصادية والجوانب القيمية للتخلف .

ويهدف هذا المقال إلى اثبات زيف وخطأ ادعاء الاتجاه التقليدي بأن القيم الاجتماعية المتخلفة هي من أهم معوقات التنمية في بلدان العالم الثالث من خلال محاولتنا شرح ماهية انساق القيم وعوامل تشكلها،وكيف أنها تكون دائما نتاجا لواقع اجتماعي اقتصادي في فترة تاريخية معينة،وكيف أن الاستعمار بما خلقه من ظروف فعلية متخلفة قد ساهم في خلق قيم متخلفة،وكيف تتغير هذه القيم بتغير هذه الظروف بفعل الدور الايجابي الذي تلعبه الشعوب في مقاومة الاستغلال .

ولتحقيق هذا الهدف يبدأ المقال بعرض موجز لتصورنا النظري لماهية أنساق القيم وللعلاقة الجدلية بينها وبين عناصر التكوين الاجتماعي الاقتصادي،ثم نحاول تطبيق هذا التصور النظري على حالة المجتمع المصري للتعرف على الملامح الأساسية والعامة للأنساق القيمية به وعوامل تشكلها تاريخيا ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل السبعينات من هذا القرن ، وذلك تمهيدا لمعالجة أكثر تفصيلا ، في مقال تال ، للأنساق القيمية الحالية في المجتمع المصري وتأثرها بالتحولات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية التي طرأت عليه منذ بداية سياسة الانفتاح والتبعية للغرب في خلال السنوات العشر الماضية .

٢ ـ ماهية أنساق القيم :

من الأمور المسلم بها أن سلوكنا في مختلف مجالات النشاط في حياتنا الاجتماعية توجهه قيم معينة . والقيمة Value بالمعنى الذي نقصده عبارة عن **حكم عقلي و/ أو انفعالي على أشياء مادية أو معنوية يوجه اختياراتنا بين بدائل السلوك في المواقف المختلفة** . فالأمانة مثلا قيمة توجهنا عندما نواجه موقفا ما ، وليكن وجود ممتلكات للغير تحت تصرفنا ، ويكون علينا أن نختار بين بديلين سلوكيين : أما الاستيلاء عليها أي اختلاسها (وفي ذلك مخالفة لقيمة الأمانة) أو الحفاظ عليها لصالح صاحبها (وفي ذلك تمسك بقيمة الأمانة) .

القيمة إذا هي التي تحدد لنا نوع السلوك المرغوب في موقف ما توجد فيه عدة بدائل سلوكية . وتنتظم القيم مع بعضها في نظام قيمي بحيث تمثل كل قيمة في هذا النظام عنصرا من عناصره . وعلى قدر ما يوجد من تعدد في مجالات الحياة والسلوك يوجد تعدد في نظم القيم الموجهة لسلوك الفرد . وعلى هذا يمكننا القول أن لدى كل فرد نظاما للقيم السياسية ونظاما للقيم الاقتصادية ونظاما للقيم الجمالية ونظاما للقيم الاسرية . . . الخ وكما هو الحالة بالنسبة لأي نظم أخرى تنتظم هذه النظم القيمية مع بعضها البعض في نظام كلي للقيم يصبح فيه كل نظام من النظم الخاصة بمجال حياتي معين نظاما فرعيا فيه أو عنصرا من عناصره .

ومن الأمور المسلم بها أيضاً أن القيم تكتسب من خلال عملية التطبيع الاجتماعي للفرد منذ مولده ومن خلال تفاعله الاجتماعي مع الآخرين في المجتمع . وعلى هذا فإن القيم التي يعتنقها أي فرد في المجتمع تكون بالضرورة ذات طابع اجتماعي وهي جزء مما يسمى بالتكوين « النفسي الاجتماعي » للأفراد الذي يشكل مع الأيديولوجيا الوعي الاجتماعي .

والقيم الاجتماعية الموجهة لسلوك الافراد والمجموعات في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة تتصف بعدة صفات أساسية تماما مثل الوعي الاجتماعي بصفة عامة والتكوين النفسي الاجتماعي للأفراد بصفة خاصة :

أولا : أنها تعكس طبيعة الوجود الاجتماعي للأفراد والمجموعات والطبقات في مرحلة تاريخية محددة وداخل تكوين اجتماعي اقتصادي معين كما أنها نتاج لهذا الوجود في نفس الوقت .

وعلى هذا فأننا نستطيع أن نفهم طبيعة العلاقات الانتاجية السائدة في مجتمع ما في فترة محددة من تاريخه من خلال تحليلنا لنسق (أو أنساق) القيم السائدة فيه في نفس الوقت ، كما أننا نستطيع أن نستدل على طبيعة هذه الأنساق القيمية من تحليلنا لواقع العلاقات الانتاجية في المجتمع . ذلك أن العلاقات الانتاجية تشكل الأنساق القيمية (وغيرها من عناصر التكوين النفسي الاجتماعي للأفراد كالاتجاهات والعادات والتقاليد والعواطف . . . الخ) عن طريق تأثيرها المباشر وغير المباشر على ظروف الحياة اليومية للناس وعلى علاقاتهم الأسرية والاقتصادية والسياسية والقومية . . . الخ .

وبناء عليه فأننا لا نستطيع أن نتحدث بوجه عام عن قيم المجتمع المصري أو عن نسق عام واحد للقيم في هذا المجتمع في أي فترة من فترات تاريخه سواء المعاصر منه أو القديم ، ولكننا نستطيع أن نتحدث عن أنساق القيم التي توجد لدى كل طبقة من طبقاته

في كل مرحلة من مراحل تطوره التاريخي . ذلك لأن ظروف الحياة التي تعيش فيها كل طبقة من طبقات المجتمع تختلف عن تلك التي تعيشها غيرها وبالتالي فأنها تنتج أنساقا مختلفة من القيم .

ثانيا : أنها ، وإن كانت تتصف بالثبات النسبي ، إلا أنها تتغير بالضرورة مع تغير الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الناس ، ومع اتضاح أنها تعوق الحياة الطبيعية في الظروف الجديدة لأنها توجه الناس إلى اتيان سلوك لا يتلاءم وهذه الظروف . مثال ذلك ما حدث في كثير من البلدان بعد الثورة الصناعية من اضطرار الناس إلى التخلي عن القيم التي تدعو إلى السلوك المسترخي الذي لا يقيم اعتبارا للوقت وتبنيهم لقيم أخرى تدعو إلى سلوك أكثر تنظيما وانضباطا يجعل للوقت قيمة عظمى (الوقت من ذهب) . إن تغير ظروف المعيشة من النمط الزراعي التقليدي الذي يعتمد على العمل في مجموعات صغيرة متناثرة وعلى الطقس إلى النمط الصناعي الذي يعتمد على خط الانتاج وضرورة تواجد أعداد كبيرة من العمال في مكان واحد وفي آن واحد امام آلاتهم واعتماد عمل كل فرد على الآخر جعلت لعنصر الوقت أهمية كبرى وبالتالي كان لا بد من حدوث تغير في قيمة الوقت بحيث تتلاءم مع الظروف الجديدة ، وكذلك الحال بالنسبة للقيم الخاصة بخروج المرأة للعمل بعيدا عن نطاق الأسرة ، فقد أدت الثورة الصناعية إلى احتياج متزايد للأيدي العاملة وأصبحت القيم القديمة التي تضع القيود على سلوك المرأة وعملها معوقا للتطور الاجتماعي فتم التخلي عنها وتبنى الناس قيما جديدة تشجع على عمل المرأة خارج نطاق الأسرة .

ثالثا : أن أنساق القيم قادرة ، بعد أن يتم تشكيلها على الاستمرارية والبقاء والانتقال من جيل لآخر وتكتسب بذلك قوة في توجيه سلوك الأفراد . وعلى هذا فانها في حالات كثيرة لا تستجيب فوريا للتغيرات التي تطرأ على الظروف المعيشية المادية للمجتمع بل تظل تمارس تأثيرها لفترة على الناس،على الرغم من تعارضها مع الواقع الموضوعي الجديد بل وحتى مع صالحهم، حتى تصبح معوقة فعلا لسير حياة وأنشطة الناس فتستبدل بغيرها . ولكن عملية الاستبدال هذه لا تتم دون صراع بين القيم القديمة والقيم الجديدة يستمر لبعض الوقت . مثال ذلك ما يحدث عند تحول المجتمع من النمط الزراعي إلى النمط الصناعي وظهور الطبقة العاملة . إن هذه الطبقة العاملة تتشكل من الأجراء الذين كانوا يشتغلون بالزراعة ومن الحرفيين والصناع المهرة وصغار البورجوازيين الذين كانوا يعتنقون قيما كانت في وقت ما ملائمة لنمط الحياة في المجتمع الزراعي ولكنها لم تعد ملائمة لنمط الحياة في المجتمع الصناعي الحضري ، وليس من السهل التخلي عن

هذه القيم لأنها حين تكون في عقول ملايين من البشر تكتسب قوة هائلة فتظل تمارس تأثيرها على سلوك الطبقة العاملة لفترة من الوقت .

رابعا : نظرا لأن الطبقات الاجتماعية في أي تكوين اجتماعي اقتصادي لا تعيش منعزلة عن بعضها البعض، ولكنها تكون على اتصال يومي مع بعضها وتتأثر كل منها بالأخرى وتؤثر فيها، **فان الأنساق القيمية لكل طبقة من الطبقات الاجتماعية لا بد أن تحتوي على عناصر من الأنساق القيمية للطبقات الأخرى ، ولكن الطبقة المسيطرة اقتصاديا وبالتالي اجتماعيا وسياسيا تكون لها القدرة على نشر قيمها بين غيرها من الطبقات** من خلال سيطرتها على وسائل الانتاج وعلى مختلف الأساليب المؤثرة على الوعي مثل المؤسسات التربوية والاذاعة والتلفزيون والسينما والصحافة ودور النشر بل وحتى دور العبادة . وتدرك الطبقات المسيطرة تماما خطورة القيم وتعلم أنها هي الموجه لسلوك الناس ولذلك تعمل جاهدة على بث قيمها بين الجماهير تدعيما للنظام القائم وحفاظا على مصالحها . ولكن هذه الطبقة المسيطرة تتفنن في نفس الوقت في ايهام الطبقات الأخرى بأن هذه القيم ليست قيمها فحسب ولكنها قيم المجتمع بوجه عام وبأن الحفاظ عليها من مصلحة المجتمع بأسره وبأن الخروج عليها ضار بالمجتمع ويستحق العقاب ، وهذا ما يطلق عليه اصطلاح تزييف الوعي ، وقد كانت احدى مهام الثوريين في كافة المجتمعات كشف زيف ادعاءات الطبقات المستغلة وإعادة تشكيل أنساق القيم لدى الطبقات الثورية بما يتفق مع مصالحها ، وكانت هذه أيضا من مهام الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار .

خامسا : على الرغم من أن أنساق القيم تعكس طبيعة العلاقات الانتاجية وتكون نتاجا لها وبالتالي تتغير بتغيرها من جهة وتساعد على أو تعوق هذا التغير من جهة أخرى الا أنها تضم عناصر قيمية ذات طابع قومي عام ومشترك بين جميع الطبقات تنتقل من جيل لآخر وتتسم بقدر أكبر من الثبات.ويرجع ذلك إلى الظروف التاريخية للمجتمع التي تميزه عن غيره من المجتمعات وإلى التفاعل المستمر والدائم بين جميع أفراد المجتمع وخاصة في الدفاع عن استقلال وحرية المجتمع الذي ينتمون اليه . وعلى الرغم من أن وجود مثل هذه القيم القومية العامة والمشتركة بين الناس مهما كانت انتماءاتهم الطبقية لا يلغي الفروق الجوهرية في الأنساق القيمية للطبقات الاجتماعية بالمجتمع فأنه يكون مسئولا عن ذلك القدر من التشابه القيمي في المجتمع الذي يميزه عن غيره من المجتمعات . ومن الملاحظ أن المجتمعات ذات المستوى الاقتصادي المنخفض تتصف بقدر أكبر من التشابه بين أفرادها في أنساق القيم يميزها عن غيرها من المجتمعات وخاصة حين يكون الاتصال بينها وبين غيرها من المجتمعات ضعيفا . ونستطيع أن نلحظ ذلك

من المقارنة بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة في وقتنا هذا ، وفي رأينا أن ذلك التشابه بين أفراد المجتمع المتخلف الذي يميزه عن المجتمع المتقدم يرجع إلى الطبيعة الاستغلالية لعلاقات القوى في المجتمع العالمي المعاصر .

فالمجتمعات المتقدمة يمكن النظر اليها على أنها « طبقة مسيطرة» والمجتمعات المتخلفة يمكن النظر اليها على أنها طبقة مستغلة إذا نظرنا إلى المجتمع الدولي على أنه كيان واحد كبير .

سادسا : بناء على كل ما سبق يتضح لنا أن نسيج الأنساق القيمية في المجتمع في أي مرحلة من مراحل تطوره (وكل مرحلة تعتبر بالضرورة مرحلة انتقالية بين المرحلة السابقة عليها والمرحلة التالية لها) يضم عناصر قيمية قديمة وبالية ممتزجة بالعناصر القيمية الجديدة التي بزغت لتلائم الظروف التاريخية الجديدة وتعكس العلاقات الطبقية الجديدة بالاضافة إلى عناصر قيمية أخرى ذات طابع قومي تاريخي تم توارثها عبر أجيال متلاحقة تعكس الظروف الحياتية والجغرافية والوطنية للشعب ككل وتميزه عن غيره من الشعوب .

سابعا : تمثل القيم ، كما سبق أن ذكرنا جزءا من التكوين النفسي الاجتماعي للأفراد الذي يمثل بدوره أحد جانبي الوعي الاجتماعي (الجانب الآخر هو الايديولوجيا) وعلى هذا فان فهمنا وتحليلنا وتنبوءاتنا بأنساق القيم الاجتماعية يقتضي منا النظر اليها على ضوء ثلاث محاور : الأول ، علاقتها بغيرها من مكونات التكوين النفسي الاجتماعي مثل العادات والتقاليد والآراء والاتجاهات والرغبات والأمال ، والثاني علاقتها بالايديولوجيا ، أي الجانب الآخر من الوعي الاجتماعي والثالث علاقة الجانبين (أي التكوين النفسي الاجتماعي من جهة والأيديولوجيا من جهة أخرى) بالعلاقات الانتاجية داخل التكوين الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع في فترة تاريخية محددة من تطوره . ويمثل الرسم التالي تصورنا للعلاقة بين المحاور الثلاث التي يمكن اعتبارها مداخل Inputsلنسق شخصية الفرد بما تحتويه من قيم بينما يكون السلوك الفعلي هو المخرجOutput .

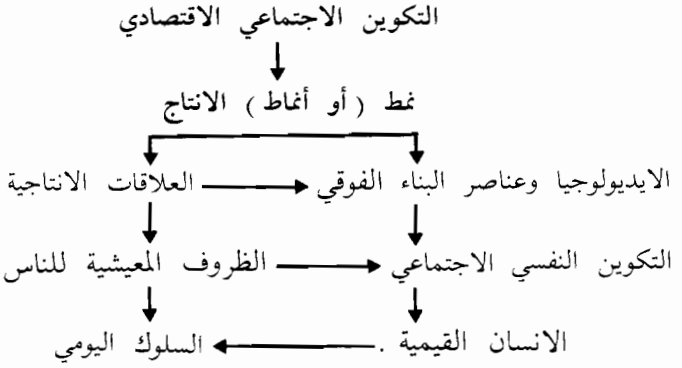

٣ ـ العوامل المؤثرة على أنساق القيم في مصر حتى بداية حكم محمد علي

لقد كان التكوين الاجتماعي الاقتصادي المصري قبل عهد محمد علي أشبه ما يكون بالتكوين العبودي مع بعض ملامح التكوين الاقطاعي (ويسميه بعض المؤلفين بنمط الانتاج الخراجي) وأعاق المستعمر تطوره الطبيعي . وكانت العلاقات الانتاجية علاقات استغلالية بشعة للقوى المنتجة من جانب الحكام وأعوانهم الذين كانوا يسيطرون على وسيلة الانتاج الاساسية . . . الأرض .

وكانت الظروف المعيشية للغالبية العظمى من المصريين سواء في القرية أو في المدينة شديدة السوء ، اللهم إلا في بعض فترات الإستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي ، وكان ذلك راجعا إلى عدة عوامل متداخلة منها استيلاء الحكام وأعوانهم على معظم انتاج الفلاح بحيث لا يبقى له حتى ما يكفي لكي يقيم أوده ، والفيضانات التي تغرق الزرع وتقتل الماشية وتهدم المنازل وانخفاض مياه النيل وتلف المزروعات نتيجة للجفاف وهجمات الجند للسلب والنهب وانتشار الأوبئة ويصف قاسم عبده حالة المصريين خلال عصر سلاطين المماليك فيقول « والواقع أن قصور الفيضان وتعطل الزراعة كان كارثة يخشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب ، وتنتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال ، ويشتد التزاحم على الأفران ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد رهيب في أسعار الغلال والخبز وبالتدريج يفرض الغلاء نفسه على مظاهر الحياة ثم تبدأ المجاعة التي تقتل الكثيرين من عامة الناس جوعا ، وتمتلىء الشوارع والطرقات والحقول بالجثث التي ما تلبث أن تجيف ، وتنتشر الأمراض الوبائية التي تسكن ألوف المصريين تراب بلادهم[١] » وفي مكان آخر يقول قاسم عبده : « والحقيقة أن الأوبئة والمجاعات في عصر المماليك كثيرة متلاحقة ولكنها جميعا تشترك في كونها تحالفت مع ظلم الحاكمين وعبث العربان واللصوص والمماليك المفسدين لطحن المصريين فقد عاشت في مصر انذاك طائفة كبيرة من سواء العامة الذين لا يكادون يحصلون على قوت يومهم ، أو يجدون ما يستر أجسادهم ، فضلا عن جماهير الفلاحين الذين كانت حياتهم في عصر سلاطين المماليك تجسيدا لمأساة الانسان حين تتضافر عليه كوارث الطبيعة وظلم الحكام . وكان طبيعيا أن تبدو الحياة مستحيلة وكريهة في نظر عامة المصريين بسبب عوامل الاحباط المتحكمة في حياتهم اليومية »[٢] .

كيف انعكست ظروف المعيشة اليومية للمصريين الكادحين في الريف والمدينة وتعرضهم الدائم للاستغلال والنهب (ويضيق المقام هنا عن حصر كل ألوان الاستغلال التي تعرضوا لها والوصف التفصيلي للظروف غير الانسانية التي كانوا يعيشون في ظلها) على أنساق قيمهم التي كانت الموجه لهم في سلوكهم اليومي ؟

لقد غالى بعض الكتاب في وصف الجانب السلبي من هذه القيم فرأوا أن كل هذه الظروف السيئة قد جعلت من خضوع المصري ، وخاصة الفلاح ، احدى الظواهر الاجتماعية الأساسية في مصر ، وأنها جعلت الطابع المميز لأنساقه القيمية هو الاستسلام للقدر والخضوع أمام الذين لهم سلطة عليه وعدم تمرده على السلطات . ويورد جبريل بيير نموذجا للكتابات التي تركز على سمة الخضوع والاستسلام فيقول : « ان مئات سنوات القمع والكبت المعاناة قد جعلته شكاكا للغاية . وهو يمارس الظلم والطغيان في غير رحمة على أولئك الذين يقلون عنه في الوضع الاجتماعي وهو متكبر ومتغطرس على أولئك الذين يساوونه في المركز الاجتماعي بينما يكون خاضعا لأولئك الذين يفوقونه في المركز الاجتماعي بل يمتهن نفسه إلى حد الاذلال والاهانة »[٣] .

ويورد جبريل بيير مزيدا من النماذج لكتابات مؤلفين يؤكدون أن السمة الغالبة على الأنساق القيمية المصرية هي سمة الاستسلام والخضوع ، سواء للقدر أو للحاكم .

فيقتبس من الأب عيروط ما يلي :

« يقول كعب الاحبار الراوي للأحاديث نقلا عن المقريزي (عندما خلق الله جميع لاشياء فأنه أعطي لكل منها قرينا ، فقال العقل سوف أذهب إلى سوريا ، وعندها قال التمرد وأنا سوف أذهب معك ، وقال الفقر أنا ذاهب إلى الصحراء وعندها قالت الصحة وأنا سأجيء أيضا إلى الصحراء ، وقال الثراء أنا ذاهب إلى مصر وعندها قال الاذعان وأنا سوف أذهب معك . ويضيف عيروط قائلاً : على هذا النحو كان استسلام الفلاح إلا أن استسلامه وصل إلى درجة التذلل والحط من الكرامة ولم يكن ذلك نتيجة للفقر بقدر ما كان نتيجة للضغوط المتواصلة من جانب ولاة الأمور في بلاده ومجتمعه . . فهم لم ينشأوا إلا على تلقي الضربات والغرامات والاهانات والارهاب وعد ذلك من الأمور التي أدت بهم في النهاية إلى تبلد الشعور وعدم الاكتراث »[٤] .

وينفي بيير نفيا قاطعا فكرة أن تكون سمة الاستسلام والخضوع سمة وراثية أو سمة طبيعية متأصلة في الشعب المصري ويرجعها إلى الظروف القاسية التي مر بها هذا الشعب ويرى أنها لا بد أن تتغير بتغير هذه الظروف. ويورد أمثلة متعددة على وجود سمة مضادة لها تماما وهي سمة التمرد والثورة منها ثورة أهالي منطقة فوه بالغربية عامة ١٧٩٨ وثورة أهالي فارسكور والمنزلة ضد الفرنسيين وثورة أهالي قرية السليمية بقنا التي استمرت شهرين عام ١٨٢١ ضد حكومة محمد علي وثورة قرية بغبرات بالقرب من الأقصر عام ١٨٢٢ التي نجحت في طرد موظفي الحكومة المركزية وفي السيطرة على مخازن الحكومة وتكوين نوع من الحكم المستقل ، وبلغ عدد الشهداء فيها ألف شخص . ونتيجة لحالات

التمرد العديدة التي قام بها الفلاحون في العشرينات من القرن التاسع عشر فقد صدر قانون في عام ١٨٣٠ يحدد العقوبات القاسية التي توقع على الفلاحين وقادتهم في حالة التمرد . كما صدر قانون آخر بعد تولي سعيد العرش يحتوي على فقرات خاصة تحدد العقوبات في حالة تمرد الفلاح . . ومما يدعو للاهتمام أنه لم يرد في هذا القانون ما يشير إلى احتمال تمرد فئات اجتماعية أخرى غير طبقة الفلاحين .

ومن هذا نرى أن الأنساق القيمية لدى الشعب المصري اتسمت بصفة عامة بسمتين متناقضتين : السلبية والاستسلام من جهة والايجابية والتمرد من جهة أخرى . وهذا شيء طبيعي لا يثير الدهشة . فطبيعة العمل الزراعي أولا لابد أن تخلق السمتين في أنساق القيم ، فالزراعة غير الآلية تجعل المزارعين معتمدين إلى حد كبير على ظروف لا دخل لهم فيها ولا يستطيعون حيالها شيئا، مثل حالة الجو وكفاية ماء النهر وليس عليهم سوى الاستسلام لهذه الظروف وبالتالي لابد من أن تنشأ لديهم قيم الصبر والانتظار والتسليم بالمقدر وبالمكتوب ، وبكل ما يرتبط بها من قيم غيبية لا تحث إلا على السلوك السلبي مثل الابتهال . ويدعم هذه القيم الكوارث الطبيعية مثل الجفاف وما يؤدي إليه من قحط ومجاعات وأوبئة ـ ولكن نفس هذه الظروف المرتبطة بالعمل الزراعي البدائي تخلق في نفس الوقت سمة مناقضة في أنساق القيم وهي سمة الايجابية والتحدي . فحين تهدد الفيضانات الناس لابد أن يهبوا هبة رجل واحد لحماية أنفسهم منه باقامة الجسور على النهر ولاغاثة المنكوبين، كما أنه في حالة وفرة المياه ينشط الناس جميعا متعاونين في الحرث والزرع ويسهرون على رعاية مزروعاتهم، كما ينشطون بعد ذلك في جمع المحصول واعداده للاستهلاك أو السوق. ومن شأن ذلك أن تنشأ قيم ايجابية تحث على السلوك الايجابي والجماعي والتعاوني تتدعم هي الأخرى باستمرار .

كما أن طبيعة العلاقات الانتاجية تخلق أيضا لدى الناس هاتين السمتين المتناقضتين وتدعمها فالقمع والارهاب والبطش من جانب السلطات من شأنه أن يخلق لدى الناس قيما تدعو إلى سلوك من شأنه الحفاظ على الذات من الدمار بواسطة هذه القوى الغاشمة وخاصة إذا كانت هذه السلطات تستميت في أحداث هذا الأثر ، فهي لم تكن تكتفي بعقاب المتمردين ولكنها كانت مثلا « لكي تبث الرعب في قلوب الفلاحين (بعد اخماد تمردهم) قامت بربط بعض المساجين في فوهات المدافع وأطلقت عليهم النيران . . . فخروا صرعى أمام أعين الفلاحين، هذا وقد أمر أحمد باشا طاهر حاكم مصر العليا في ذلك الوقت بذبح مئات الفلاحين »[٥] ، ولكن نفس هذه العوامل القمعية كانت تخلق لدى الجماهير قيما مضادة . قيم تدعو إلى سلوك ايجابي ثوري يظهر عندما يصل الاستغلال

إلى حد يعوق استمرارية الحياة وعندما تصاب السلطة ببعض الضعف أو عندما تتهيأ الظروف للثورة .

ويجب أن نذكر هنا حقيقة إدراك المستعمر وأعوانه لتدين الشعب المصري واستغلاله للدين وتزييفه لتحقيق سيطرته ، والدور الايجابي الذي لعبته القيم الدينية في مقاومة المستعمر وبطشه .

ويجب أن نوضح أنه ليس هناك شعب في العالم وعبر التاريخ الانساني لا تتسم أنساقه القيمية بهاتين السمتين المتناقضتين ، كما أن هذا التناقض في السمات القيمية ليس قاصرا على طبقة واحدة في المجتمع . ويؤدي التطور الذي يطرأ على كل من القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية إلى تغليب أو تدعيم سمة قيمية على حساب الأخرى وإلى خلق سمات قيمية أخرى بالضرورة .

لقد كان هم السلطات خلال عصور الاستعمار لمصر بث القيم السلبية والخشوع والاستسلام لدى القوى العاملة بالشعب المصري بكافة الوسائل والأساليب الفيزيقية والمعنوية (عن طريق نشر أيديولوجية المستعمر والمستغل) ، ولكن ظروف الحياة الفعلية للجماهير وعملها الانتاجي وتعرضها للقمع كان يخلق لديها في نفس الوقت قيما ايجابية وثورية كان يدعمها كل تحسن في الظروف المعيشية وكل نجاح في فرض إرادتها . . ومما لا شك فيه أن هاتين السمتين العامتين للأنساق القيمية (أي السلبية والايجابية) قد صبغتا القيم الموجهة لكافة الأنشطة التي يمارسها أفراد الشعب الكادح .

ففي مجال النشاط الانجابي ، أدت الظروف المعيشية للمصري خلال هذا التاريخ الطويل إلى أن يتبنى قيما محبذة لكثرة الانجاب وخاصة انجاب الذكور . وفي رأينا أن هذه القيم الانجابية قد نشأت وتدعمت لعدة أسباب منها :

(١) الارتفاع الرهيب في نسبة الوفيات وخاصة وفيات الأطفال نتيجة لسوء التغذية والمجاعات والأوبئة ونقص الرعاية الصحية ، وقد شهدت مصر ، كما سبق أن ذكرنا ، أبان عصر المماليك سلسلة متوالية الحلقات من الأوبئة « تجلت آثارها السلبية في ذلك التدهور الواضح والمطرد في اعداد السكان . وثمة من الدلائل ما يساعدنا على الوقوف على مدى التقلص السكاني الذي عانت منه البلاد نتيجة للأوبئة والمجاعات التي ألمت بها . . وتقلصت اعداد القرى نتيجة لموت اعداد كبيرة من الفلاحين من ناحية ، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن بحثا عن الطعام من ناحية ثانية ، فضلا عن الفرار من الزراعة وظلم الحكام من جهة ثالثة . . وقد قضى الفناء الكبير الذي بدأ ينشب مخالبه في البلاد منذ خريف سنة ١٣٤٧ م على اعداد كبيرة من السكان بحيث لم يستطيع الاحياء

دفنهم أو تغسيلهم . وفي الريف لم تجد الأرض من يزرعها كما لم تجد المحصولات من يضمها نظرا لكثرة الموتى بين الفلاحين وتوقفت أعمال الصيد إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم في أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة »[٦] . . ويمكن أن نلاحظ أن الأوبئة والمجاعات التي كانت تبدأ بالقضاء على أعداد كبيرة من الأطفال والرقيق والغرباء أخذت تشكل ظاهرة في الحياة المصرية منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا ، فقد تكررت هذه الظاهرة المؤلمة في سنوات ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٧ ، ١٤٦٨ ، ١٥١٣ م . لقد أدرك المصري من واقع تجربته الاحتمالات المرتفعة لوفاة من ينجب من أطفال وكان رده على ذلك انجاب أكبر عدد منهم ليعيش منهم من يعيش ويموت من يقرر له الموت . ولما كان لا حول له ولا قوة ازاء المرض والموت فقد دعم ذلك لديه القيم الغيبية .

(٢) ومن أسباب تدعيم القيم الانجابية لدى المصريين عدم أمنهم على مستقبلهم . فلم يكن لدى المواطن أي شعور بالاطمئنان بالنسبة لحالات العجز أو المرض أو الشيخوخة . ولهذا فأن الابناء كانوا يمثلون بالنسبة له « التأمين » بالنسبة للمستقبل .

(٣) ومن هذه الأسباب أيضا حاجة الأسرة إلى مزيد من الأيدي العاملة للمساعدة في العمل الزراعي ولمواجهة الأخطار الطبيعية والاجتماعية .

وفي مجال النشاط الاقتصادي تبلورت قيم سلبية نحو العمل الإجباري أو السخرة فلم يكن العمل نشاطا يعود على من يبذله بالخير بل أنه كان نشاطا مغتربا عنه بل ويصبح نتاجه مدمرا له ، بينما تبلورت قيم ايجابية نحو العمل الاختياري أو التلقائي حين يهب الناس جميعا لدرء خطر يحدق بهم أو حين تسمح الظروف السياسية أو الاقتصادية لهم بالاستفادة بجزء أكبر من ناتج عملهم . وهناك أمثلة عديدة على هجر الفلاحين لأراضيهم وقرارهم هربا من العمل بالسخرة . أما بالنسبة للسلوك الاستهلاكي فقد وجد نفس التناقض في القيم . « فبينما لم يكن لدى الشعب المصري الكادح ما يكفي لكي يسد رمقه كان يدخر الحبوب لكي يستخدمها بذورا في العام المقبل ولكنه كان يضطر إلى استهلاكها حين تجبره ظروف القحط على ذلك[٧] » .

وفي مجال العلاقات الأسرية نجد أن الظروف المعيشية الفعلية للشعب المصري الكادح قد نجمت عنها قيم ايجابية نحو المرأة ونحو العلاقة بينها وبين الرجل ما زالت قائمة ومؤثرة حتى الآن بين الطبقات الفقيرة سواء في الريف أو في المدينة . فوضع المرأة بين فقراء الفلاحين ومعدميهم يختلف عن وضعها بين أغنيائهم اختلافا كبيرا . فالمرأة الفلاحة الفقيرة لا تتحرج ولا يتحرج زوجها عادة من أقدامها على مشاركته في العمل .

وظاهرة عمال التراحيل ـ وهم من الفلاحين المعدمين ـ تفيض بنماذج لا حصر لها تؤكد جميعها مشاركة المرأة للرجل في هذا النشاط الشاق (قصة يوسف ادريس ـ الحرام تصور ذلك الواقع بأمانة) كما أن المرأة الريفية الفقيرة ، وتحت ضغط الحاجة الاقتصادية ، تتمتع بقدر نسبي من الاستقلال الاقتصادي الذي يصل في بعض الأحوال إلى حد تقبل أن يكون لها مشروعها الاقتصادي الذي يمول من مال تتلقاه على سبيل النقوط في مناسبة اجتماعية خاصة بها . ويتخذ ذلك المشروع الاقتصادي الخاص عادة شكل المشاركة على المواشي أو التجارة البسيطة في بعض المنتجات الغذائية أو ما إلى ذلك[٨] .

ويقرر قدري حفني أن المرأة الريفية حين تشارك الرجل في مشاق عمله وحين تمارس أنشطتها الاقتصادية المستقلة البسيطة لا تبدي ، بل وقد لا تحس أنها تقدم على أمر غير مألوف أو أنها تحقق ثورة أو شيئاً من هذا القبيل ، وكذلك الحال بالنسبة للرجل الريفي الذي لا يجد غضاضة في شيء من ذلك ، ولا يبدي بل وقد لا يحس أيضا أنه يقدم تنازلا بشكل أو بآخر . بل على العكس تماما فإن الرجل الريفي والمرأة الريفية يمارسان ما يمارسانه باعتبار أنه أمر طبيعي تماما ، أمر تفرضه طبيعة الأمور بحيث لا يحتاج إلى مناقشة أو اعمال فكر . وهو كذلك بالفعل[٨] .

وفي مجال علاقات المصري (ونحن نتحدث هنا دائما عن الغالبية الساحقة للشعب المصري التي كانت ترزح تحت نير الاستغلال من جانب الحكام وأعوانهم فلم تتشكل خلال هذه الفترة الطويلة طبقة مصرية مستغلة قائمة بذاتها)، بالسلطة وبأهل المدينة عموما كان من الضروري أن تكون اتجاهاته نحوهم مزيج من الكراهية والتخوف والتشكك . ويرى قدري حفني أن الفلاح المصري قد تجاوز عمره على الأرض المصرية خمسة آلاف عام أو ما يقرب من ذلك . ولم ير الفلاح من « أهل البندر طوال ذلك التاريخ وحتى مؤخرا سوى الصراف والمأمور ومندوب الجهادية ووكيل النيابة ومن إليه من رجال السلطة الذين ساموا الفلاح سوء العذاب وليس غريبا والأمر كذلك أن يتشكك الفلاح في نوايا أبناء البندر وأن يأخذ حذره منهم بطريقته الخاصة .

هذه بعض نماذج من القيم الموجهة لسلوك المصريين في مجالات حياتهم والتي يتضح فيها السمتين العامتين المتناقضتين للأنساق القيمية (السلبية والايجابية) والتي تكونت بفعل ظروف الحياة اليومية التي حددتها طبيعة العلاقات الانتاجية الاستغلالية عبر قرون طويلة من الزمان في تاريخ المجتمع المصري والتي ولا شك ظلت تمارس تأثيرها حتى وقتنا الراهن . ولكنها خضعت لتغييرات وتعديلات واضافات بعد ذلك بحكم التغيرات الجوهرية التي طرأت على البناء الاجتماعي للمجتمع المصري .

٤ ـ التغيرات التي طرأت على الأنساق القيمية منذ حكم محمد علي وحتى ثورة ١٩٥٢

يمكن القول أن الفترة منذ بداية حكم محمد علي (١٨٠٥) وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ قد شهدت أكبر تحول وتنوع في الأنساق القيمية للمجتمع المصري جاء انعكاسا للتحول الذي طرأ على حالة القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية في مصر ومهد للتحول الذي حدث منذ قيام ثورة ١٩٥٢ .

فمن المعروف أن الشعب المصري قد ذاق الأمرين على أيادي المماليك كما أن الظروف المعيشية والانتاجية المتدهورة التي نجمت عن الاضطراب السياسي والاقتصادي الذي أشاعه المماليك نتيجة جشعهم والصراع الدموي فيما بينهم قد أصبحت عائقا أمام تطور القوى الانتاجية في مصر ، ولذلك فقد ثار المصريون على المماليك وأيدوا محمد علي الذي استغل هذه الظروف لينفرد بالسلطة بعد ذلك وكانت هناك بعض الظروف التي هيأت الوعي الاجتماعي لدى المصريين في صراعهم مع المماليك ومن بينها :ـ

١ ـ الاستغلال الاقتصادي الذي وقع على الفلاحين ، والضرائب التي فرضت على التجار .

٢ ـ ظهور بعض القادة المصريين كعمر مكرم والشيخ الدرديري وآخرون فقد أدت الحملة الفرنسية وصراع المصريين معها إلى نضوج الوعي وبلورة القيادة الشعبية .

٣ ـ استغلال محمد علي للموقف وتحريك الثورة في اتجاهه[٩] .

ومنذ أن استقر الحال لمحمد علي في مصر بدأت مرحلة جديدة من مراحل التاريخ المصري شهدت تطورا في كل من القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية وبدأ التكوين الطبقي للمجتمع المصري يتخذ شكلا جديدا وبالتالي ظهرت قيم جديدة ليتلاءم سلوك الناس مع الأوضاع الجديدة . ومن أهم ملامح الفترة الممتدة منذ حكم محمد علي في أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ما يأتي :

١ ـ استقر نظام حيازة الأراضي في شكل ملكية فردية خالصة (ملكية رقبة) بعد أن كانت مجرد ملكية (انتفاع) طوال تاريخ مصر الوسيط والعثماني وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١٠] وبذلك اتسعت رقعة المنتفعين بالأرض وضمت بعض طوائف الشعب ومنهم الفلاحين مما جعل الفلاح يحس بقيمة حيازته للأرض اكثر مما سبق وجعلته يدخل من الآن فصاعدا طرفا في الصراع الطبقي[١١] حيث أصبح الفلاحون المصريون ينقسمون إلى طبقتين ، طبقة ملاك الأرض وطبقة الاجراء الزراعيين . وأصبحت الأرض سلعة رأسمالية تباع وتشترى .

ولا شك أن هذا العامل كان له أثره على الأنساق القيمية بطريق مباشر أو غير مباشر ، وأهم هذه التأثيرات بروز قيم تطلعية لدى المصريين نحو امتلاك الأرض وظهور الصراع القيمي نظرا لبزوغ طبقة من الملاك من أهالي القرية لها مصالحها المرتبطة بمصالح الحاكم والمتعارضة مع مصالح الفلاحين الأجراء .

٢ ـ جعلت الحملة الفرنسية مصر وللمرة الأولى في العصر الحديث تلامس أوربا ومن ثم كان احتكاك المصريين بالغربيين ، وهو الاحتكاك الذي تعمق خلال مدة حكم محمد علي وخلفائه والذي كان له أثر بالغ على الفكر المصري من جهة وعلى تبعية الاقتصاد المصري للرأسمالية الأوربية من جهة أخرى[١٢] .

٣ ـ ظهور بذور الاتجاه نحو الرأسمالية فقد تهيأت الظروف من الداخل وقوتها عوامل خارجية لتطوير الاقتصاد الاقطاعي الزراعي فقد اهتم محمد علي بانشاء المصانع وظهرت الاحتكارات الزراعية والصناعية وهيأت عوامل متعددة الاقتصاد للتحول إلى السوق[١٣] ويرى أحمد صادق سعد أن « عصر محمد علي مثل انتقالا حاسما لمصر من النظام الشرقي إلى النظام البورجوازي ، بأن أصبح فيها النمط الرأسمالي للانتاج هو السائد »[١٤] .

٤ ـ ظهرت خلال هذه الفترة طبقة عمالية في المدن وحدث توسع هائل في النمو الحضري ، كما ترتب على تدفق رؤوس الأموال والاستثمارات الاجنبية وزيادة الطلب على القطن المصري وجود طبقة التجار والمرابين والوسطاء أو طبقة رجال المال أي الطبقة البورجوازية .

٥ ـ تبلورت أيديولوجيات متصارعة تعبر عن مصالح الطبقات المتصارعة واستمدت الأيديولوجيات عناصرها من التراث ومن الفكر الغربي الذي انفتحت عليه مصر .

٦ ـ ظهرت وتبلورت شريحة المثقفين المصريين بفعل الاهتمام بالتعليم لخدمة الأهداف الاقتصاديةوالسياسية والعسكرية للحاكم وللمستعمر على السواء ، وكان من الطبيعي أن ينقسم المثقفون إلى فريقين : فريق يتخذ جانب الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا على مصر وفريق يتخذ جانب الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال ، وأن يدافع كل فريق من خلال مواقفه وانتاجه الفكري عن الطبقة التي يشعر بالولاء نحوها مستعينا في ذلك بالتراث وبالفكر العالمي الذي تدفق على مصر بعد اتصالها المباشر بالعالم منذ الحملة الفرنسية . وقد شهدت هذه الفترة وقوع الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ وكان لذلك تأثيره الهام على الصراع بين الفكر البورجوازي والفكر الاشتراكي في مصر . ويجب أن نضع في اعتبارنا الأصول الطبقية للمثقفين في مصر ، وتأثيراتها على الوعي

الاجتماعي من جهة وعلى الأنساق القيمية لدى الجماهير من جهة اخرى .

هذا وقد أدى تزايد اتساع نطاق التعليم بمستوياته المختلفة بالاضافة إلى ما طرأ على المجتمع من تحولات اقتصادية انعكست على تزايد التحضر (المدن) وتزايد قطاع العمال وما ترتب على ذلك من تضخم اجهزة الدولة وخاصة البيروقراطية إلى نشأة واتساع ما يسمى بالطبقة الوسطى البورجوازية التي تقع بين طبقة العمال والفلاحين من جهة وطبقة كبار ملاك الأرض والبورجوازية الحضرية من جهة أخرى . ولعبت هذه الطبقة دورا هاما في تشكيل أنساق القيم وما احتوته من تناقضات بفعل موقفها المتناقض .

وفي رأينا أنه إذا كانت انساق القيم لدى المصريين قد تسكلت خلال الفترة حتى بداية حكم محمد علي أساسا بفعل ظروف المعيشة الفعلية للناس الناجمة عن طبيعة العلاقات الانتاجية ، فإن الفترة منذ تولي محمد علي (وحتى الآن بالطبع) تتشكل فيها القيم لا بفعل ظروف المعيشة الفعلية للناس فحسب ولكن أيضا بفعل الأيديولوجيا ، ذلك أن التمايز الطبقي الذي شهده المجتمع المصري واحتدام الصراع بين الطبقات وكذلك التطور الملموس الذي طرأ على حالة القوى الانتاجية قد شجع على نضوج الوعي لدى الطبقات وعلى ظهور وتبلور ايديولوجيات واضحة ومتصارعة ومؤثرة . ومما لا شك فيه أن الايديولوجية البورجوازية كانت الأسبق في التشكيل والنضج كما أنها كانت تفرض على الجماهير بفعل ملكية البورجوازية لوسائل نشرها وقمعها للأيديولوجية المعارضة ، ولكن مع تزايد نمو الطبقة العاملة والمثقفين ومع احتدام الصدام بين الطبقات ومع اشتداد الحركة الوطنية والكفاح ضد الاستعمار وانتشار التعليم أخذت الطبقات العاملة تصبح أكثر وعيا بمصالحها وترجم ذلك إلى ايديولوجية واضحة أصبحت بدورها مؤثرة على القيم وموجها لسلوك هذه الطبقات الجماعي في صراعها مع القوى المستغلة .

ونظرا للظروف التاريخية التي مرت بها مصر فإن طبقة كبار الملاك والبورجوازية (وخاصة البورجوازية التجارية والمالية) قد ارتبطت مصالحها بالاستعمار وبالتالي ارتبطت به أيضا أيديولوجيا أو تبنت الايديولوجية الرأسمالية الغربية، بينما وقفت طبقة الفلاحين والعمال موقف العداء من المستعمر على المستوى السلوكي والايديولوجي وتبنت موقفا وطنيا وسوف يكون لذلك تأثير بالغ على أنساق القيم في مصر وعلى مستقبل التنمية فيها لعدة أجيال قادمة .

« لقد دخل الانجليز مصر على بساط من خيانة الاقطاع للثورة العرابية ، والحقيقة إن ارتماء الاقطاع بهذه الصورة السافرة في أحضان القوات الانجليزية الغازية كان خير دليل على النضج الطبقي لهذه الفئة ، فقد أدركت على الفور ـ دون أي تردد ـ أن الخطر

الحقيقي الذي يهددها هو ثورة الفلاحين الذين يقودهم عرابي ، وأن أي عدو لهذه الثورة أيا كان هدفه هو بالضرورة صديق . . . وهكذا نسي سلطان باشا وعلي مبارك باشا وشريف باشا وغيرهم ، كل ما كانوا ينادون به من مطالب اصلاحية ودستورية وارتموا تحت وطأة الخوف من ثورة الفلاحين في طريق الخيانة السافرة وباعوا أنفسهم للانجليز وباعوا معها مصر » . . وقد بنى كرومر خطته في مصر على عدة أسس اهمها دعم طبقة كبار الملاك ، والاستعانة بها اتباعا مطيعين وسياطا تلهب ظهر الشعب المصري »[١٦] .

ومن المعروف أن من بين طبقة كبار الملاك هذه ظهرت البورجوازية الرأسمالية التي وجدت نفسها بالضرورة في صدام مع الاستعمار والاستثمار الاجنبي فتمردت عليه وتبلور تمردها في حركات التحرر والاستقلال ووجدت تجاوبا ومساندة من القوى الشعبية ولو أنها في النهاية عجزت عن التعبير عن المصالح الشعبية .

ومن الأدلة على نضوج الوعي في مصر منذ عهد محمد علي وادراك الطبقات لمصالحها والصراع بينها وبين بعضها البعض تشكل الأحزاب السياسية ذات الأيديولوجيات الواضحة لأول مرة في تاريخ مصر . وكانت هذه الأحزاب (الممثلة للطبقات) تبث أيديولوجيتها بكافة الوسائل وخاصة الجرائد آملة من وراء ذلك أن تؤثر على القيم الموجهة لسلوك الناس بما فيه مصلحتها .

وقد كان للاتصال المستمر بالعالم الخارجي وتحسن وسائل الاتصال تأثير كبير على تعديل أنساق القيم في مصر وخاصة في الحضر وذلك من خلال اطلاع المثقفين على الأيديولوجيات الغربية وعلى النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونشاط حركة النقل والترجمة والاحتكاك المباشر بالأنماط السلوكية الأوربية للأجانب في مصر ، ولكن هذا التأثير على أنساق القيم كان تأثيرا فارقا ومتمايزا أي أنه كان يتخذ أشكالا متباينة تبعا لاختلاف الطبقات .

فقد تبنت طبقة كبار الملاك الأراضي الزراعية وطبقة البورجوازية الكومبرادورية الايديولوجية البرجوازية والرجعية الغربية وعملوا على نشرها بكافة الأساليب فظهرت ترجمات للعديد من الكتب الغربية التي تدافع عن البورجوازية وتهاجم الاشتراكية والطبقات العاملة . مثل كتاب جوستاف لوبون (روح الاجتماع ، وسر تطور الأمم ١٩٠٩)، وروح الاشتراكية والثورة الفرنسية وروح الثورات . . الخ . وتتضح نوعية القيم الاجتماعية التي كان الرجعيون ينشرونها من هذه العبارة التي وردت في كتاب سر وتطور الأمم لجوستاف لوبون والذي ترجمه أحمد فتحي زغلول « المساواة شيء لا يمكن تطبيقه إلا بين المنحطين وهي مطمع آمال صعاليك العقول ، يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء »[١٧] .

وفي مقابل هذه القيم والأيديولوجيا الرجعية ظهرت ونمت ايديولوجيا تحررية وتقدمية عبر عنها كثير من الشعراء والمفكرين التقدميين من أمثال ولي الدين يكن الذي دعى إلى مجتمع جديد قدم له صورة غاية في الشاعرية : مجتمع أمواله كثيرة ولو أحسن انفاقها لصارت أعمدة النور في الطرقات من الفضة ، ولو بذلت في تعليم الأبناء لصاروا كالأنبياء ، ولو بذرت في الأرض لنبتت السنابل ذهبا ، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائلون يشترون ملابسهم من « ريبو » ويفرطون على الشكولاته[١٨] .

وليس أدل على نضوج الوعي الطبقي في مصر خلال هذه الفترة الممتدة من حكم محمد علي حتى ثورة ٥٢ من الثورات المتعاقبة وحركات التمرد العديدة التي وقعت من جانب الفلاحين والعمال وحركات النضال المسلح ضد الاستعمار . فقد شهدت هذه الفترة الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول . وهما ثورتان شملتا المجتمع المصري بأسره من أقصاه إلى أقصاه وكانتا دليلا قاطعا على السمة الايجابيةفي أنساق القيم في مصر كما أنهما تركتا آثارا عميقة على هذه الأنساق . ولم تكن ثورة الفلاحين على الحاكم أو المستعمر فحسب ولكنها كانت أيضا ثورة على الظلم وعلى التخلف . ويكفي هنا أن نشير إلى ما حدث من إعلان الفلاحين تشكيل جمهوريات مستقلة في زفتى والمطرية وفارسكور والمنيا لكي نبين طبيعة التغير الجذري الذي طرأ على قيم الفلاحين ووجه سلوكهم في هذه الأحداث ، ليس هذا فحسب ولكنه أصبح بالضرورة سمة هامة من سمات الأنساق القيمية . ففي جمهورية زفتى أصدرت لجنة الثورة ـ وهذا اسم قيادة الجمهورية التي انتخبها الفلاحون في اجتماع عام ـ سلسلة من البيانات يقول أحدها « لا بد من حماية الأمن من كل عابث ، ولا بد من تحقيق العدالة لكل ساكن ، ولا بد من اقامة منشآت جديدة . . . » وظهرت في هذه الجمهورية قيم حب وتقديس العمل الجماعي الذي يعود بالنفع على أصحابه فقد « احتشدت جموع المتطوعين من الفلاحين لتردم البرك والمستنقعات المحيطة بالمنطقة ولتصليح الجسور . . . وتكونت فرق من الطلاب لحماية الأمن ونظمت دوريات لمراقبة الحدود ، وكان عمر الجمهورية ١٩ يوما فقط لم يترك قادتها فيها حلما من أحلامهم إلا وحققوه . حتى أنهم أقاموا كشكا تعزف فيه الموسيقى كل يوم »[١٨] .

أما في المدينة فإن الطبقة العاملة تكون لديها وعي طبقي بمصالحها وتكونت لديها قيم ايجابية نحو العمل ونحو الوطن ونحو الكفاح .

وبصفة عامة يمكننا القول أن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الفترة منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين قد أثرت تأثيرا كبيرا على الأنساق القيمية في المجتمع المصري بحيث اصبحت تتسم في نهاية هذه الفترة بما يأتي :ـ

أ ـ التناقض الحاد بين الانساق القيمية للبورجوازية المصرية من جهة وللطبقة الفلاحية والعمالية من جهة أخرى وبالتالي الصراع القيمي ومحاولة الطبقة المسيطرة فرض أنساقها القيمية على الطبقات الكادحة .

ويتضح ذلك التناقض في الأنساق القيمية من مظاهر سلوكية عديدة من أوضحها تبني البورجوازية المصرية وخاصة الشرائح العليا منها لأنماط السلوك الغربية وتشبهها بالأجانب والافتخار بذلك واحتقار التقاليد والقيم الشعبية بل وحتى اللغة القومية واحتقارها العمل اليدوي والمشتغلين به والتعالي على أفراد الشعب والانفاق البذخي والإباحية وتعاطي الخمور والقمار في مقابل حفاظ الطبقة العاملة على اخلاقياتها ورفضها ومقاومتها لهذه الانماط السلوكية واستفادتها من كل ماأتاحته لها التغيرات الاقتصادية من فرص في تنمية قدراتها الانتاجية والعقلية ، فقد أقبل الجمهور على التعليم كلما فتحت نوافذ جديدة له بضغط منها وعبر عن تقديره للعمل الشريف المنتج وأقبل عليه فتكونت كوادر حرفية وفنية من كافة المجالات (تصور روايات نجيب محفوظ التي دارت حول أحداث هذه الفترة ذلك التناقض الطبقي في أنساق القيم تصويرا واقعيا رائعا ومن أمثلتها القاهرة ٣٠ وزقاق المدق وبين القصرين وقصر الشرق والسكرية وبداية ونهاية) .

ب ـ على الرغم من استمرارية القيم الغيبية والتراكلية والاستسلامية إلا أن القيم العلمانية الايجابية أصبحت تمارس تأثيرا ملحوظا على سلوك الشعب المصري في المدينة بصفة خاصة وحتى في الريف نظرا لتزايد الاتصال بينه وبين الحضر وذلك بفعل اتساع نطاق التعليم نسبيا والتحولات الحضرية والصناعية للمجتمع وتحسن مستوى الخدمات التدريجي وتأثير وسائل الاعلام .

جـ ـ تبلور القيم السياسية وبخاصة لدى المتعلمين من أبناء الشعب وأهمها قيم الوطنية والكفاح ضد الاستعمار والاستغلال .

٥ ـ تأثير التغيرات البنائية التي طرأت على المجتمع المصري بعد ثورة ١٩٥٢ على أنساق القيم :

نستطيع أن نجمل أهم التغيرات البنائية التي طرأت على المجتمع المصري منذ قيام ثورة **١٩٥٢** وحتى بداية مرحلة الانفتاح الاقتصادي فيما يلي :

(أ) الاطاحة بالنظام الملكي في الحكم .

(ب) إضعاف طبقة كبار ملاك الأرض الزراعية كقوة اجتماعية اقتصادية وسياسية في مصر باصدار قوانين الاصلاح الزراعي .

(جـ) ضرب المصالح الرأسمالية الأجنبية بتمصير البنوك والتأميمات .

(د) التخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال السياسي .

(هـ) تقليص البورجوازية المصرية الكبيرة عن طريق التأميمات وانشاء القطاع العام .

(و) تحقيق مكاسب للعمال والفلاحين من خلال القوانين المتتالية التي صدرت .

(ز) توسيع نطاق الطبقة المتوسطة بحيث احتلت مكانا اكبر بين الطبقات الدنيا والعليا .

وعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي حققت ثورة **٢٣** يوليو تغييرات هامة في المجتمع المصري منها توسيع القاعدة الصناعية مما أدى إلى زيادة حجم الطبقة العاملة والمجتمعات الحضرية وكهربة الريف بعد انشاء السد العالي وانتشار التعليم والخدمات الثقافية وارتفاع المستوى المعيشي لجماهير الشعب[٢٠] .

وعلى المستوى السياسي العام شهدت مصر في الخمسينات وحتى اوائل السبعينات انفتاحا على المعسكر الاشتراكي وتعاونا فعالا مع دوله ومع دول العالم الثالث . وتجدد انتماء مصر العربي ووحدة المصير العربية كما شهدت مصر هجوما شرسا من الاستعمار لاجهاض نهضتها .

وقد كان لذلك كله تأثيرات بالغة العمق على أنساق القيم في المجتمع المصري وقد رأينا أن هذه التأثيرات لم تلق بعد العناية الكافية من الدارسين ولم تبرز أهميتها وخطورتها . ويمكن تلخيص هذه التأثيرات فيما يلي :

١ ـ نظرا للقضاء على الصورة البشعة من العبودية التي كانت تعاني منها غالبية الشعب المصري بالنسبة للاقطاعيين في الريف ولأصحاب الاعمال الأجانب والمصريين في المدينة وانهيار سطوة هذه القوى فإن ما كان يرتبط بهذه الأوضاع من قيم الذل والخضوع قد انهار وتهاوى وحلت محل هذه القيم **قيم أخرى تؤكد كرامة الانسان وتحرره والمساواة بين البشر** . ويكفي دليلا على ذلك أنه لم يعد في مقدور أي شخص مهما كان أن يجلد غيره بالسياط في أي ترية مصرية أو يجبره على العمل بالسخرة أو يعتدي على شرفه مثلما كان يفعل الاقطاعيون مع الفلاحين من قبل . ورفع زعيم الثورة شعار « أرفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد » الذي تلقفته الجماهير وتبنته كقيمة أساسية .

٢ ـ خلقت سلسلة الصراعات المريرة التي خاضها المجتمع المصري بعد الثورة مع

المستعمر ومع القوى الأجنبية (الجلاء ، تأميم قناة السويس ، تدعيم حركات التحرر العربي والأفريقي ، الحروب مع اسرائيل ، مقاومة الحصار الاقتصادي الامبريالي ، مقاومة الحرب النفسية . الخ) **قيما جماعية قوية وقيما تتعلق بالبذل والعطاء ومن أجل الوطن وبالتضحية بالمصالح الشخصية من أجل المجموع ، وقيما تتعلق بالفخر بالوطن والاعتزاز به** وترجمت هذه القيم جميعا إلى سلوك فعلي كان من أبسط مظاهره تطوع الشباب بالآلاف للدفاع عن الوطن (الحرس الوطني مثلا) وتطوعه للمشاركة في المشروعات القومية (معسكرات العمل . . .)

٣ ـ أدت هذه الظروف إلى خلق وتدعيم قيم انتاجية ايجابية ترجمت إلى سلوك فعلي ظهرت آثاره في نجاح العديد من المشروعات الاقتصادية الجديدة التي لم يكن لمصر عهد بها من قبل واتضح ذلك من استعراض ما هو معروض في الأسواق المصرية حيث لاحظنا أن الغالبية العظمى من احتياجات المجتمع المصري من السلع أصبحت من الانتاج المحلي بعد أن كانت مصر تعتمد على السلع المستوردة ، كما أن هذه الفترة شهدت أعلى معدلات للتنمية عرفتها مصر .

٤ ـ أدى انتشار التعليم بين طبقات الشعب إلى تدعيم القيم الخاصة بالسلوك العقلاني الرشيد كما أدى توسيع نطاق الخدمات الصحية وبخاصة في الريف إلى تخلي جماهير الفلاحين عن كثير من القيم الخرافية التي كانت توجه سلوكهم .

٥ ـ أدى الازدهار الثقافي والفني الذي تدعو أعماله إلى قيم ايجابية بناءة إلى تمثل الجماهير لقيم تحث على العمل المنتج وعلى التفاني من أجل المجتمع والى كسر حدة التطلعات الطبقية .

إلا أننا نعلم أن نجاح ثورة ٢٣ يوليو لم يقض على التناقضات الطبيقية في مصر وإن كان قد حقق مكاسب كبيرة للطبقات العاملة . وظلت الفئات التي وجهت الثورة إليها ضربات موجعة (وليست قاضية) أي الاقطاعيون والبورجوازية الكبيرة تتحين الفرص المناسبة لاستعادة سيطرتها وبسط نفوذها ونشر قيمها ، كما ظلت القوى الامبريالية العالمية تمارس مؤامراتها وعدوانها من أجل إعادة مصر إلى فلك استغلالها وتصفية مكاسبها وتحقيق التبعية الكاملة لها والقضاء على استقلالها الاقتصادي والسياسي حتى نجحت في إحداث النكسة وفي سيطرة الطبقة الطفيلية على مجريات الأمور في مصر وإحداث تحولات بنائية كبيرة أثرت على أنساق القيم الاجتماعية ، وذلك ما سنتعرض له في مقال تال .

الحواشي

(١) انظر: قاسم عبده قاسم. **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي**، عصر سلاطين المماليك ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ ـ ١١٣٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٣) انظر: جبريل بير. **دراسات في تاريخ مصر الحديثة**، ترجمة عبدالخالق لاشين وعبدالحميد فهمي الجمال ـ مكتبة الحرية الحديثة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٢١٧ .

(٤) **المرجع السابق**، ص ٢١٨ .

(٥) **المرجع السابق**، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٦) قاسم عبده قاسم. **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٧) **نفس المرجع** ، ص ١٥٧ .

(٨) قدري حفني. **علم النفس ومشكلات مجتمعنا** ، دراسة غير منشورة. قسم علم النفس ، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٨ ص ٤١ .

(٩) عبد الباسط عبد المعطي. **الصراع الطبقي في القرية المصرية**. دار الثقافة القاهرة ١٩٧٩ ص ٥٠ .

(١٠) عبد الخالق لاشين. **مقدمة ترجمة كتاب جبريل بير السابق ذكره** .

(١١) عبد الباسط عبد المعطي. **مرجع سبق ذكره**، ص ٣ .

(١٢) عبد الخالق لاشين. **تاريخ مصر الاجتماعي**. مكتبة سعيد رأفت القاهرة ١٩٧٦. ص ٥٩

(١٣) عبد الباسط عبد المعطي. **مرجع سابق**، ص ٥٥ .

(١٤) احمد صادق سعد. **مصر في ظل محمد علي**. دراسات عربية . ج ١٧ ، ع ٢ ديسمبر ٨٠ ، ص ١١٨ .

(١٥) رفعت السعيد، **تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر**، ص ١١٠ .

(١٦) **المرجع السابق**، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(١٧) **نفس المرجع** ، ص ٦٩ .

(١٨) **نفس المرجع**، ص ٧٢ .

(١٩) للاطلاع على التطورات الاقتصادية في المجتمع المصري منذ عام ١٩٥٢ أنظر: **بحوث ومناقشات المؤتمر العلمي السنوي الثالث للاقتصاديين المصريين في: الاقتصاد المصري في ربع قرن ١٩٥٢ ـ ١٩٧٧** . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٨ .

(٢٠) ابراهيم العيسوي، **تطور النظام الاجتماعي ومستقبل التنمية الاقتصادية في مصر**، جهاز تنظيم الأسرة والسكان سلسلة التخطيط رقم ٢، ١٩٨٠ ص ١٩. وأيضا: جودة عبد الخالق. أهم دلالات سياسة الانفتاح الاقتصادي ١٩٧١ ـ ١٩٧٧ ـ الاقتصاد المصري في ربع قرن. ص ٣٨٨ .

SOCIAL VALUE SYSTEMS: THEIR FORMATION AND CHANGE IN EGYPT

S. Naim

The formation and change in social value systems are treated in their dialectical relationship to historical socio-economic formations in Egypt. During most of their recent history and untill in 1952 revolution the Egyptians had been in permanent struggle with natural conditions as well as the opression of colonialisme and the local elements allied with it. Two contradictory characteristics of the social value system resulted from this position: positive revolutionary and negative retreatist values. Colonialists and the dominant classes always enforced the negative retreatist values but with the increase of oppression and the development of the economy after Mohammed Ali positive revolutionary aspects of value systems gained strength.

The radical transformations which the Egyptian society witnessed after the 1952 revolution and during the struggle to acheive political and economic independence from imperialism led to the emergence of more positivve values,such as equality, dignity, national pride, sacrifice, respect for labor, productivity rationality, secularism... etc. However, negative values dormant until the parasite bourgoisie class succeeded in taking rower after Nassers' death.